محمود صبري: الفنان والمفكر

د . مهدي الحافظ

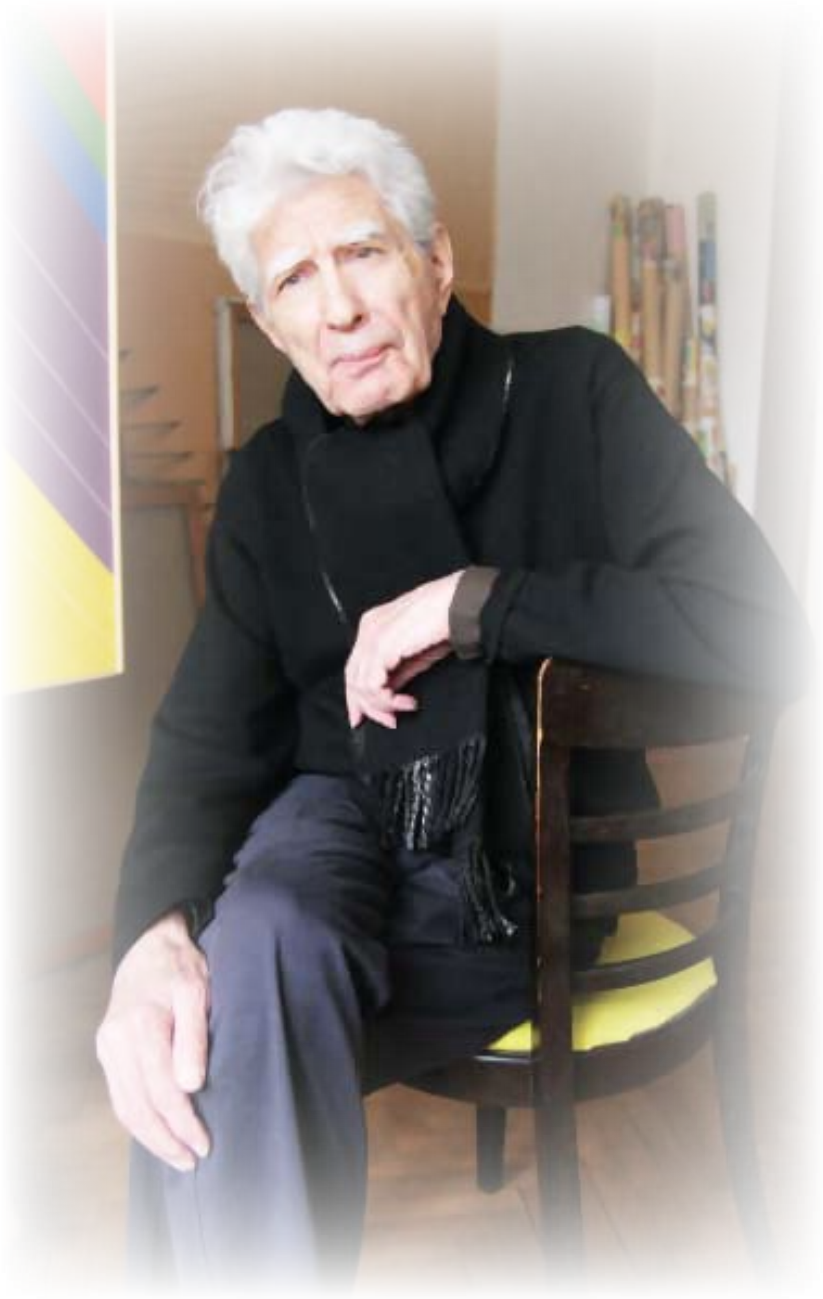

فقدنا فجأة رمزا كبيرا من رموز الفن والفكر: محمود صبري ، تعرفت عليه في بـراغ في مطلـع الستينـات وفي أعقاب انقلاب شبـاط المشؤوم، حيث انخرط منذ قدومـه في "حركة الدفاع عـن الشعـب العراقـي" التـي تكونت آنذاك بمبادرة مـن شخصيات وطنية وديمقراطيـة برئاسـة الأستاذ الكبير محمد مهدي الجواهري .

كان قبـل ذلـك التاريـخ في موسكـو حيث أمضـى فـترة تدريـب واطلاع قصـيرة . كان انطباعـي الأولي عنـه ، انـه شخـص جـدي ودؤوب وشديد الرغبـة في التعلـم . ثم امتـدت الأيام بنـا فوجدته عميق التفكـير وحساسا للغاية ومليئـا بالإخلاص لعمل ما هو جديد ومتجـدد. وعندما تطور الجدل السياسـي والفكـري بـين العراقيـين والمناضلـين منهم بوجـه خاص، برز محمـود صـبري في مقدمـة الداعـين للتغيـير والرجـوع إلى المفاهيـم الأصيلة في الفكـر الثوري. بل تطور الأمـر، ليكون الرجـل صاحب النظرة الجديـدة في أساليـب الفـن والدعوة إلى مـا سمي آنذاك بـ "واقعية الكم". بـل اصطحـب هـذه الفكـرة المتميزة ، بالبحـث عـن أصـول (البعـث) وارتباطـه العميـق بالفكـر الفاشـي والنازي واصدر مجموعة مقالات عن تاريخ البعث وأفكاره ومنهجه العنفي الـذي طبـق آنـذاك في العـراق. وقام بنشر بحثه هذا في مطبوعات "حركة الدفاع عن الشعب العراقي".

كنـت التقـي بـه مـرارا وفي شقتـه الصغـيرة وخارجهـا ونتحـدث كثيراعن متطلبـات التغيير والحاجة لصياغـة مفاهيـم وأفـكار جديـدة. وذكـر لي مـرارا أن الماركسية لم تفهم جيدا وباتـت الحاجة ماسـة لصياغة رؤيـة جديـدة مستوحـاة مـن صلب هذه النظريـة وتجارب الشعوب التي سـارت في طريقها. لهـذا توجه الفقيد جديـا لفهـم العلاقة بين الفـن والعلم. وابتكـر المدرسة المعروفة بـ "واقعية الكـم" . كنت اسأله ، كيف لك أن تبتعد عـن الوظيفـة الاجتماعية للفـن بهذه الرؤيـا، وتبالـغ بالمضمـون العلمـي للصياغة الفنية دون حساب للجوانب الاجتماعيـة. كان مؤمنـا بالقاعـدة العلميـة (أو الكيماويـة) للكثـير من الإشـكال والصياغات التشكيلية حتى انه أنتج العديد من اللوحات وفقا لهذا الأسلوب أو المنهج . ثم أردف الحديث عـن الأصـول والمفاهيـم الرصينـة بالدعـوة لقـراءة كتـاب فريدريـك انجلـس المسمى (دايلكتيـك الطبيعة). وهـو كتاب يمزج بين تطـور الفكر والمعطيـات العلميـة ويعتـبر مـن الأصـول الكبيرة في الفكـر الماركسي . ومع أن رؤيتـه الجديدة هذه لم تلق تأييدا واسعا إلا أنها تمثل درجة مهمة في الابتكار والإبداع الفكري والفني. مـن المهم أن نذكـر أن الفقيد كان محبا للحيـاة ومتعلقـا بالمستقبل وحريصا علـى التجديـد في كل شـيء. أمضـى السنـوات الطويلة الماضيـة في عزلة حقيقيـة ولم تحركه أيـة دوافع سوى الإخلاص للفـن والفكـر الجديد. كما أن أعمالـه الفنية المتميـزة ، كانت هي الأخـرى صـورة مباشرة عـن حقيقة مشاعـره وحبـه للوطـن والشعـب والمستقبل الجديد .

ثـلاث قـصـائـد في أحـــوال امـــرأة

عواد ناصر

(١) المرأة/ الطفلة

طفلةٌ تضحكُ لنجمةٍ حتى لو لم ترَها،
شيخٌ يطاردُ طقمَ أسنانِهِ التي سرقَها القردُ
تبكي..
جناحُ فراشةٍ يتفتتُ
الطفلةُ تقتاتُ على التلفزيونِ وجحودِ الآخرينَ،
– أخبارُ الوطن؟
– الوطنُ أخبارٌ، يا سيدتي.
إنها لا تضحكُ عندما ترى النجمةَ.
وهي في سريرِها ترسمُ خارطةَ العالم على السقفِ:
– ياه، كمْ متشابكٌ نسيجُ العنكبوتِ.
ثم تبلعُ قهوتَها،
ثم قهوتَها،
ثم قهوتَها،
هي ليستْ وحيدةً، أبداً، وإن بدتْ أنها وحيدة.
لندن ٢٣ أيلول (سبتمبر) ٢٠١١

(٢) أسئلة

ما الذي يجعلُ الشجرةْ
سلّةً تتكرّرُ جدّاً لتبدو كسيدةٍ ضجرةْ؟
كيف يمكنُ للثلجِ أنْ يتُكرّرُ
بينا تَظلّ السماءُ رماديةً؟
والرصيفُ (أراه من النافذةْ):
مثقلاً بالخطواتِ مبلّلةً،
والفتاةُ أضاعتْ خطاها على الثلجِ وهي تريد القطارَ إلى
موعدٍ عاطفيٍّ،
لماذا أضاعتْ فتاةٌ خطاها إلى الموعدِ العاطفيِّ؟
وثمة بحرٌ – ولم أدرِ كيف وضعتُ القصيدةَ في لّجةِ
البحرِ–
بينا أرى الثلجَ يهطلُ عَبرَ السماءِ الرماديةِ؟
البحرُ؟
أيُّ سفينةْ؟
سوفَ تحملُ بحراً أُجاجاً إلى ساحلهْ؟
لندن ٦ شباط (فبراير) ٢٠١٢

(٢) الفتاةُ معجبةٌ

أعرف أنني شخْتُ نوعاً ما،
والعلامةُ ليستِ السعالَ،
ولا هي اللّهاثَ عند صعودِ السلالم،
ولا خطوتي البطيئةَ،
إنما هي اليأسُ من الحبّ..
فأيّةُ امرأة، بعد زواجين فاشلين وبضع عشيقاتٍ
ستتلطفُ عليّ ولو بنظرةِ شفقةٍ،
أو حتى إعجاباً بقبعتي،
أو بشاربي الذي يزدادُ بياضاً كلَّ دقيقةٍ؟
إنه الحبّ يمضي قُبيلَ الغرامِ وبعدَ الغرامِ بوقت طويلْ
والحياةُ التي هي أسرعُ من عمرِنا
واللّحاقُ بها يشبهُ المستحيلْ،
والبناتُ يقعنَ سِراعاً بفخِّ جيكولو عجوزٍ ولكن غنيّ
ويصبغُ شعرَهْ،
فكيفَ أحبّك.. أنتِ بعمرِ ابنتي،
هل تحبّين كهلاً بعمرِ أبيكِ؟ .
ثمّ أنني أعشقُ امرأةً أخرى،
سلّمتها مفاتيحي عن طيبِ خاطرٍ،
فدخلتْ كلَّ الغرفِ التي تتعثّر عند عتباتِها الفتياتُ الصغيراتْ،
وفتحتْ كلَّ الصناديقِ التي أخبّئُ فيها قصائدي
لتفكّ الرموزَ العصيّةَ
وتنفضُ الغبارَ الباردَ،
وتشعل النار بأشجار الغابة اليابسة.
أرأيتِ،
كيف يخترعُ الشعراءُ الغرامَ، كما الشعرَ، حيث انسجامُ
الشبيهين من طينة واحدةْ؟
رُغمَ أنَّ التناقضَ من صفةِ الشعرِ والشعراءِ.
لا تقولي "أحبّ أبي"!
ولتظلّي، إذا شئتِ، أو فلتضلّي،
وإن شئتِ فلتْذهبي...
فأنا شاعرٌ، حسبُ،
من قال إنّي نبي؟.
لندن – ٤ آذار (مارس) ٢٠١٢

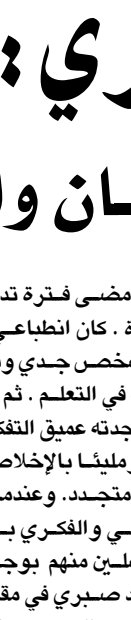

البرج العاجي

فوزي كريم

رائحة السينما

يحل بي فجأة هوسٌ سينمائي. واضح أن رغباتي في المشاغل الأخرى غير معطلة: القراءة، الكتابة، الموسيقى، الرسم. ولكن هوس السينما يحتل موقعاً خاصاً، لأنه يُقبل من الذاكرة. فالسينما هنا ليست تعويضاً عن افتقاد لفنون أخرى، بل هي رغبة في الرؤية التي تشترك فيها الفنون جميعاً. لن أفتقد فيها الكلمة، الفكرة، الموسيقى، والتشكيل. من داخل الشاشة الفضية تفيض ينابيع الصورة والصوت معاً، في دراما تكون الكلمة فيها عنصراً حاسما، حتى في السينما الصامتة. وإذا كانت هذه عناصر موضوعية فإن عنصر الذاتية جوهري. فنحن نحب السينما لأنها شريان نابض في حياتنا الشخصية منذ الطفولة. حتى لتبدو استعادة الذاكرة لعالمها ذات صبغة روحية. نعم، الصبغة الروحية للذاكرة. ففي الطفولة كانت السينما مدخلاً لا يُضاهى لفانتازيا المخيلة، المفتقدة في الحياة الواقعية. للسحر الكامن في الافتراض والتوقع. وهي في عمري الآن، وفي المغترب البعيد، مدخل سحري للماضي المنتخب بعناية: ماضي الطفولة، الصبا والشباب الأول مع أبهاء السينما في بغداد: الخيام، غرناطة، بابل، النصر، سميراميس، السندباد، ميامي، النجوم، شهرزاد، ريكس، روكسي، برودوَيْ، الرشيد، ريجنت، وعشرات السينمات الأخرى الموزعة حول المركز.

كان دخول أحدنا في بهو السينما يعني الخروج من العالم. وبالرغم من أن العناصر التي تشكل هذا البهو هي ذاتها المتوفرة في حياتنا اليومية: التبريد في الصيف، سعة الفضاء المقفل والمضاء برقة، مشاعر الصحبة حتى لو كنت وحيداً، صوت فريد الأطرش (ولا أعرف لم فريد الأطرش وحده!) التي تتدفق عليك من كل مسامة في الشاشة الفضية الواسعة، رائحة "العنبة" التي تلدغ حرارةُ مذاقها الأنف، رائحة "الشامية" (الذرة) الحميمة، الانتظار المشوب بتوقع لا يُشبه التوقعات التي نألفها في حياتنا الأرضية، العتمة المفاجئة التي تحتضنك وتقذف بك على حين غرة في عمق الشاشة مع الشخوص والأحداث... أقول بالرغم من توفر هذه العناصر إلا أنها في السينما تتماسك متوحدة. تُقبل عليك، وأنت في الحاضر، كتلةً واحدة لا تملك أن تفصل صوت فريد الأطرش عن رائحة "العنبة"، أو التوقع عن العتمة المفاجئة. ولذلك تبدو لي هذه الاستعادة ذات صبغة روحية.

حين زرت بغداد قبل أشهر لم أستطع أن أستوعب مقدار الخراب الذي حل في هذه المدينة إلا حين دخلتُ عنوةً بهوَ سينما الخيام (أسست أوائل الخمسينيات)، ونظرت عن بعد إلى خرائب سينما غرناطة، وقطعتُ واجهةَ سينما سميراميس بنظرة المرتاب الخاطفة. في داخل سينما الخيام تعمّدتُ أن أتجنبَ النظر إلى جداريتيْ عمر الخيام الكبيرتين (صممتا خصيصاً في إيطاليا)، اللتين تغطيان جانبيْ البهو، خشية أن لا أراهما، فشغلتُ العين بالمقاعد المتحركة (مستوردة في حينها من أمريكا) التي مزّقت مخملَها الأحمر وبعثرت حشوتها آلافُ القطط السائبة. كانت جداريّتا الخيام شاهديْ إدانة صارخة على وقاحة المرحلة، وشاهديْ ذكرى عزيزة على النفس، هي ذكرى أولى مبالغاتي الكاذبة أواخر الطفولة.

في أيام الاحتفاء بافتتاح سينما الخيام صحبتُ أخي الكبير لواحدة من عروضها، ورجعت ممتلئاً حماساً لأصدقائي المنتظرين بحماس مماثل، في محلة العباسية. لم أرو لهم حكاية الفيلم، لأن تطلّع كلينا كان متجهاً إلى سينما الخيام ذاتها. قلت لهم، وأنا أرتجف حماساً، بأن الكرسي الذي جلست عليه كان يتحرك بأزرار على مسند اليد. ولك، حين تُطفأ الأضواء، أن تبقيه باتجاه الشاشة لترى الفيلم، أو تديره باتجاه اليمين أو الشمال، لترى فيلمين إضافيين. كانت رغبتي، في تحويل لوحتيْ الخيام الكبيرتين الرائعتين إلى شاشتين بفلمين، في مكانها تماماً. وكانت الدهشة والحسد في عيون الأطفال الصغار من أصدقائي محفزيْن لا مرد لهما. وبقيت هذه الرؤيا تصحبني كلما ذهبت إلى سينما الخيام في السنوات التالية قبل الخروج. وهي تصحبني حتى اليوم.

وجهة نظر

القليل من الشعر الخالص

ماجد موجد

التخلص من سواه، بينما كل ما يريده آباء ارثنا الاصلاء هو ما سواه، أي ليس ذلك الذي شاع وإنما الذي ضاع عن إدراك الأبناء أو أضاعوه، أضاعوا الفهم الأصيل للشعر، زبدتَه المكنونة بكل ما هو باهظ القيمة، قيمة الوعي الصارخ بأسئلته التي هي أسئلة المعرفة الكبرى، فالشعر حسب آباء شعرنا العربي . على الرغم من معيارية الشكل السائد آنذاك . هو علم وقائله عالم بما لا يعلم غيره، قائله يشعر ما لا يشعر به غيره، ثم أن كلَّ علم شعرٌ، والشعر اصطلاحا مأخوذ من شَعَرَ المرء أي إذا فطن وعلم، حسناً هذا يعني أن الشعر لم يكن في مدونات معاجم قائليه إلا قرينا للعلم والمعرفة وقربانا لهما وهو قبل ذلك مرتبط بالفلسفة ارتباطاً مصيرياً لا انفكاك منه، منذ أفلاطون حينما يقول . متراجعا عن مقولات ناهضت أهمية الشعر بوصفه مادة للتعلم . (ليس أقدر من الفلسفة على الإفادة من جنوح الشعر نحو المناطق النائية في الذات الإنسانية بحثاً عمّا لا يتوافر في العالم الموضوعي) وهو أن الشعر الخالص يتوفر على قدر من المواءمة بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي أو حسب تعريف ادونيس إن (الفرق بين الشاعر الكبير و الشاعر الصغير، هو أن الصغير حين يعبر عن نفسه لا يعبر إلا عنها، أما الكبير فحين يعبر عن نفسه فإنه يعبر عن عصره كله) أي عن جوهر وجوده في شراكة الآخر وهذا ما نتلمسه أيضا عند بول ريكور حين يقول: (إننا لا نحاول فقط فهم ما تحويه القصيدة، وإنما نحاول أيضا الإمساك بهذا العالم الذي تنتمي إليه، أو الذي تطرحه)، ثمة ما يشير في هذا التصور إلى ضرورة بلوغ الشعر اليوم مرحلة يصبح فيها معتداً بنفسه بأن يمتلك وعيه الخاص مقابل الوعي التاريخي الخاص بالفلسفة والفكر، ضرورة فهم مفاده، أن الشعر الذي ينطلق من العاطفة لا يمكنه أن يستمر ولا يكتمل إلا بالفكر، حتى يتيح له أن يكون راسخاً وذا أثر في معرفة الوجود والتعبير عنه بلغة هي غير لغة الفكر الخالص وغير لغة الشعر الشائع الذي يجب أن نتفحصه الآن، هو أن الشعر لابد أن يكون أداة من أدوات المعرفة المطلقة التي قيست قيمتها من مقدار حراكها في كل ما هو سائد، إنها الطريق التي تقوّم وتنقد لبلوغ الحقائق على وفق معايير الوعي والعقل المتطورين، فثمة حقائق في معايير الأخلاق مثلاً لا يمكنها أن تتواتر من قبل الف عام الى حقائق معاييرنا الاخلاقية الآن وما هي في أقصى الغرب غير ما هي في أقصى الشرق، بل انها تختلف في معايير مجتمع عن آخر وان كانا في اطار بلد ما ومثل ذلك يجب ان تفهم مسيرة التطور الشعري وغاياته وعلينا بدلاً من ان نلتفت سأما وتأففاً الى انحسار اهمية دور الشعر، ان نلتفت الى تحديد معناه وان نتساءل اين هو وكيف وهل هو ابن زمنه موقفا ولغة ومبنى وغاية ومضموناً؟ ان نجد شعرا أقل بكثير من هذا المارثون الكبير والغريب من كتابات بلا ملامح تلهث في جسد الثقافة العربية وتسمى لغوا وسهوا انها شعر.

أغلب الشعراء اليوم يغريهم حد الهوس أن يكونوا أبناء بررة، طيبين وطائعين لأبوة إرث شعري عكفت ذائقتهم بما استطاعوا من همة وجهد أن لا يكون إلا هو، أو يصرون على انتمائهم له مخلصين بهمة وجهد أيضا يحاولون

ادونيس

ريكور

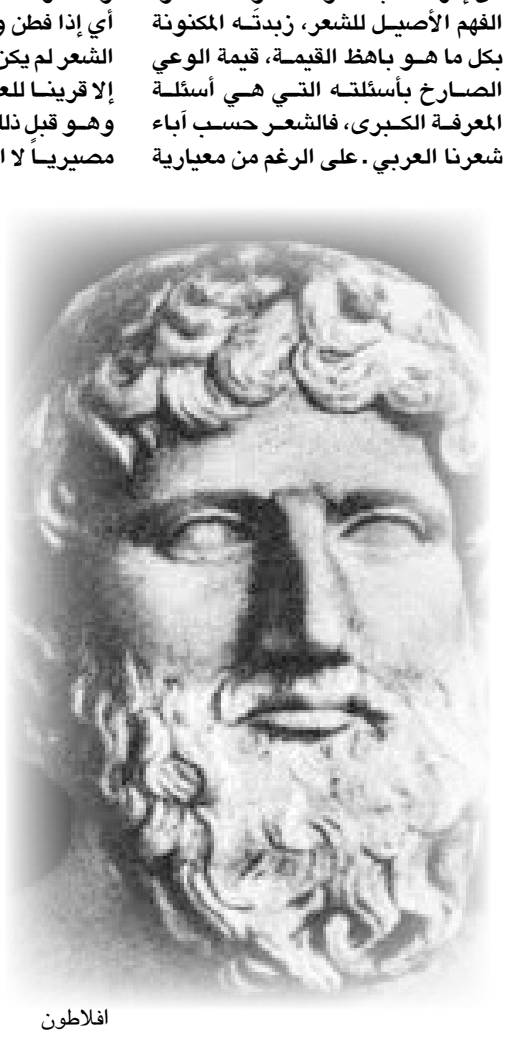

افلاطون